

المبحث الرابع

ايمان المقلد وموقف ابن عادل منه

اولاً : رأي المتكلمين

وتحرير المسألة في هذا المبحث : ان المقلد اذا تلفظ بكلمة الشهادة من غير استدلال هل يصح ايمانه أو لا؟

الواقع ان اكثر الاشاعرة ، ومنهم الباقلاني لا يعتبرون ايمان المقلد صحيحاً بل يرون انه مكلف بالنظر والاستدلال ، الا انهم يكتفون منه بالدليل الاجمالي بحيث اذا قيل له : ما الدليل على وجود الله سبحانه وتعالى؟ استطاع ان يجيب بان الدليل على وجوده هذه المخلوقات .

واما تفصيل الدلائل بحيث يتمكن معه من ازالة الشبهة ، والزام المعاندين ، وارشاد المسترشدين ، ففرض كفاية عندهم . وقد ذكر الفقهاء انه لا بد ان يكون في كل حد من مسافة القصر شخص متمكن في معرفة الدلائل التفصيلية ، ينصب للدفاع عن عقائد الملة وازالة شبهة المنكرين، والزام المعاندين، ويحرم على الامام اخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص^١.

ويقول الدكتور محمد رمضان عبد الله: ((لا ارى مبرراً للحملة الظالمة التي شنّها الحشوية على الاشاعرة زاعمين انهم يرفضون ايمان العوام في حين اننا لا نرى في كتب الاشاعرة ما يدل على ذلك ، بل بعكس ذلك، نراهم يصححون ايمان العوام ولا يكلفونهم الا بمعرفة الدليل الاجمالي ، حتى لا يتزلوا الى حضيض التقليد

١ ينظر الباقلاني واراؤه الكلامية/ د.محمد رمضان ص: ٢٧٨-٢٧٩ وشرح العقائد العضية/ لجلال الدين الدواني ١٨٧/١

المحض، ولا يمكن لمنصف ان يقبل ايمان شخص لا يستطيع ان يستدل على وجود الله بوجود الكون، وكذلك اعترضوا على الاشاعرة قائلين : بان النظر في معرفة الله وصفاته وافعاله، والعقائد الدينية ، بدعة في الدين ، اذ لم ينقل عن النبي ﷺ والصحابة الاشتغال بالنظر فيما ذكر، ولو كانوا قد اشتغلوا به لنقل الينا ، لتوفر الدواعي على نقله، كما نقل اشتغالهم بالمسائل الفقهية.)).^١

وقد اجيبوا من طرف الاشاعرة بان ما ذكرتم من عدم النقل ممنوع بل تواتر اهم كانوا يبحثون عن دلائل التوحيد والنبوة وما يتعلق بها، ويقرونها مع المنكرين، فان اهل مكة كانوا يحاجون النبي ﷺ ويوردون عليه الشبه والشكوك، ويطالبونه بالحجة على التوحيد والنبوة، حتى قال في حقهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾^٢، والقران مملوء من البحث عن تلك الدلائل التي يتوصل بها الى العقائد الدينية واثباتها عند الخصم، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ اِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^٣، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَمِثْلِهِ﴾^٤، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾^٥ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾^٤

١ ينظر الباقلائي واراؤه الكلامية : ص ٢٧٩

٢ سورة الزخرف ، الاية : ٥٨

٣ سورة الانبياء ، الاية : ٢٢

٤ سورة يس ، الايتان : ٧٧-٧٩

وما مسائل كتب الكلام الا قطرة من بحر، مما نطق به الكتاب الكريم، وكان الصحابة ببركة صحبة النبي ﷺ مستغنين عن ترتيب المقدمات ، وتهذيب الدلائل ، على الوجه الذي ينطبق على القواعد المدونة، ولكنهم كانوا عالمين بالدلائل الاجمالية ، بحيث لم تكن الشبه والشكوك متطرفة الى عقائدهم بوجه من الوجوه.^١

والواقع ان هذه الحملة على الاشاعرة حملة ظالمة ، لا ارى لها داعيا، ولئن تراوح الاشاعرة بين بعض التشدد في ايمان المقلد ، كما نجده عند عبد القاهر البغدادي^٢، وفرط السماحة والتهسير على العوام كما نجده عند الغزالي^٣ ، الا انهم لا يذهبون في تشددهم الى المدى الذي قال به بعض المعتزلة الذين هم اجدر بشن الحملة عليهم من الاشاعرة.

ويقول الدكتور محمد رمضان ايضا : ((ومما يستغرب له ان ابن تيمية يلصق تهمة القول بصحة ايمان المقلد بالاشاعرة يقول: ((ان هؤلاء لما اوجبوا النظر الذي ابتدعوه صارت فروع فاسدة اذ قالوا :ان من لم يسلكها كفر او عصى ، فقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام ان الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يسلكوا طريقهم ، وهم خير الامة وان من نطق بالايمان ، وليس عنده علم ولا بصيرة بل قاله تقليدا محضا من غير معرفة يكون مؤمنا ، فالكتاب والسنة يخالف ذلك ولو انهم سلكوا طريقة الرسول ﷺ لحفظهم الله من هذا التناقض.))^٤

١ ينظر المواقف للايجي : ١٦٤/١ ، شرح العقائد العضدية للدواني : ١٨٩/١

٢ اصول الدين للبغدادي : ٢٥٤

٣ الجام العوام : ١٩٧

٤ النبوات / لابن تيمية : ٥٠

وهذا الكلام في غاية الغرابة ، لانه مخالف لما نراه في كتب الاشاعرة جميعا
من ان ايمان المقلد تقليدا محضا غير صحيح ، وانه يجب عليه النظر والاستدلال
ولو بدليل اجمالي كما تقدم.

□

ثانيا : رأي الامام ابن عادل في ايمان المقلد

ذهب الامام ابن عادل الى ما ذهب اليه الامام ابو حنيفة ومن وافقه في

صحة ايمان المقلد!

قال الامام ابن عادل: قال جمهور الفقهاء والمتكلمين: ايمان المقلد صحيح

واحتجوا بهذه الاية: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾^١

قالوا: انه تعالى حكم بصحة ايمان اولئك الافواج وجعله من اعظم المنن على نبيه محمد ﷺ ولو لم يكن ايمانهم صحيحا لما ذكره في هذا المعرض ، ثم انا نعلم قطعا انهم ما كانوا يعرفون حدوث الاجسام بالدليل، واثبات كونه تعالى مترها عن الجسميّة والمكان والحيز، واثبات كونه تعالى عالما بجميع المعلومات التي لا نهاية لها، ولا ثبات الصفات، والتزيه بالدليل، والعلم بان اولئك الاعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا ان ايمان المقلد صحيح، لا يقال انهم كانوا عالمين باصول دلائل هذه المسائل؛ لان اصول هذه الدلائل ظاهرة بل كانوا جاهلين بالتفاضل، لأننا نقول: ان الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان فان الدليل اذا كان مركبا من عشر مقدمات ، فمن علم تسعة منها كان في المقدمة العاشرة مقلدا لا محالة^٢.

١ سورة النصر ، الاية : ٢

٢ ينظر : اللباب : ٢٠ / ٥٤١ - ٥٤٢

والذي يبدو لي والله اعلم:

انهم اتفقوا على وجوب المعرفة وقدم بعضهم النظر؛ لان المعرفة لا تحصل الا به ، وبعضهم قال بتقديم الارادة والقصد الى النظر.^١ والمهم انهم اتفقوا على ان المعرفة واجبة على المكلف واختلفوا في وجوبها شرعا أو عقلا: فاذا كانت المعرفة وجبت بالعقل فإيمان المقلد غير صحيح ؛ لان العقل مستقلٌ بادراك الخالق.

وعلى رأي من يقول بأن المعرفة واجبة بالشرع وان الله أمر بذلك ويتوصل له بالتفكر في ملكوت السماوات والارض فيمكن قبوله اذا كان هذا النظر اجمالا كما تقدم من فعل الاعرابي وجوابه، غير ان الذي يجري فيه الكلام هو تكليف الناس بالنظر على وفق ما يراه المتكلمون وترتيب المقدمات ورفع الشبهات على ما يفعل المناظرون ، فلا تساعده ادلة الشرع وانما قبل النبي ﷺ وبعده الخلفاء من الناس الايمان اجمالا ولم يكلفهم وهو بين ظهرائهم بما لا يطيقونه.

وقد تقرر ان التكليف عند الاشاعرة بما لا يطاق وان جاز عقلا غير انه لم يرد به الشرع^٢. وان اريد بالنظر في نفس الامر بان يجيد الذي يخبر بالاله والرسول نظره ويعمل فكره فيما اخبر به بعضهم فهذا مقبول وعليه فلا يصح ايمان من لم مطلقا ولم يعمل في فكره شيء من العالم والملكوت وقد ارشدنا الله الى ذلك فقال: ﴿ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^٣

١ الشامل في اصول الدين: ٢٢/٢١، لامام الحرمين الجويني.

٢ تشنيف السامع مع شرح جمع الجوامع للزرکشي : ٥١/١

٣ سورة ال عمران ، الاية : ١٣٧

ففي هذا دلالة واضحة على انه لا بد للمكلف من النظر في ملكوت الله ليتوصل الى المعرفة بالخالق لكن النظر يكون بالعموم والاجمال ثم اذا ادرك الانسان هذا الادراك فله بعدها ان يقلد ويتبع من يثق بعلمه ويعتقد جازما ان من يقلده يجبره عن دليل قطعي من قران او سنة او اجماع.